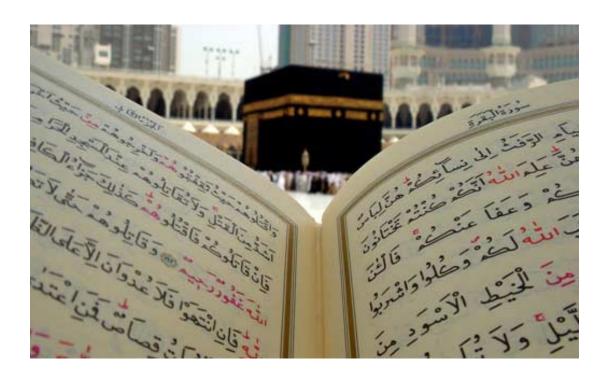
## النفس والرؤية القرآنية



(وَنَفْسِ وَمَا سَوَّاهَا \* فَأَلَاْهِ َمَهَا فُجُورَهَا وَتَقَوْاهَا) (الشمس/ 8-7).

للنفس في القرآن الكريم، محلّ ٌ مرموق، وحديث طويل، والمُلاحَظ أنّ القرآن الكريم يريد بكلمة النفس — في بعض الأحيان — الإنسان بذاته، المتألف من لحم ودم وعظم، كقوله تعالى: (وَلا تَقْ تُلُوا النَّفْسَ الَّتَيْ حَرَّمَ اللَّهَ وُ إِلا بِالنْحَقِّ ِ...) (الأنعام/ 151)، وكقوله تعالى: (لـِيـَجْزرِيَ اللَّهَ وُ كُلُّ َ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ صَرِيع ُ النْحِسَابِ) (إبراهيم/ 51).

وفي أحيان أُخرى، يريد هذه القوة الباطنة، التي نحن بصدد البحث عنها، والتي تفعل وتنفعل، وتتقلب، وتتلون.

وقد تحدّ عنها في أكثر من موضع، معبرا ً عنها بكلمة القلب، ويريد به النفس، كما في قوله تعالى: (.. و َلـَكـِن ّ الله ّ َه حَـب ّ ب َ إلـي ْكُمُ الإيمان َ و َزيَّ َنهُ وُ فِي قُلُوبِكُمْ ) (الحجرات/ 7)، وفي قوله تعالى: (.. و َلـِير ْب ِط َ عَلـَ م قُلُوبِكُمْ و َيُثَبِّ ت َ بهِ الأَقْد َام َ) (الأنفال/ 11)، فالقلوب — في مثل هذه الآيات — ليس المراد منها ذلك الجهاز الكمثري الشكل، الموضوع في الجانب الأيسر من الصدر، إنسّما المراد — لا شك ّ — النفس البشرية التي تفرح وتحزن، وتنشرح

ولما كان لابد من الإشارة إلى النفس، أشار القرآن إلى القلب، الذي هو - ربّما - وعاء للنفس مجازاً، ولينوب القلب المحسوس، عن النفس التي لا تُدرَك بالحواس، وربما أطلق القرآن كلمة الصدر لتقوم مقام النفس، كما في قوله تعالى: (رَبِّ اشْرَحْ لَي صَدْرْرِي) (طه/ 25)، وكقوله تعالى: (وَلَـقَدْ نَعْلَمُ أَنَا كُ يَضِيقُ صَدْرُكُ َبِمَا يَقُولُونَ) (الحجر/ 97)، كلّ ذلك كناية عن النفس لأنّها المحور الحقيقي للانفعالات، والتقلبات.

ولتبيان عظمتها، وأهميتها، أقسم بها ا□ عز ّ وجل ّ، في كتابه العزيز، والعادة أن يكون القسم الإلهي بالشيء العظيم، فقد جعل الشمس والقمر، والنجوم، والبلد الحرام، وغيرها، من جلائل خلقه، مقسوما ً بها. كذلك النفس، أقسم بها في قوله تعالى: (و َن َفْسٍ و َم َا س َو ّ َاه َا \* ف َأ َلـْه َم َه َا ف ُج ُور َه َا و َت َقْو َاه َا) (الشمس/ 8-7)، أي: قسما ً بالنفس، وبخالقها العظيم، الذي ف َط َر َها، وخلقها، فعظمة الخالق تتجلى في خلقه، وعظيم آثاره، ومنها النفس العظيمة العجيبة، التي ألهمها فجورها وتقواها "أي عر ّفها طريق الفجور والتقوى، وزه ّدها في الفجور، ورغ ّبها في التقوى، وعلمها الطاعة والمعصية، لتفعل الطاعة، وتذر َ المعصية وتجتني الخير، وتجتنب الشر".

ثمّ صرح بأنّ عملية تزكية النفس، وإصلاحها، ليست عملية شاقّة عسيرة، كما يظنّ البعض بل هي ممكنة ويسيرة.

فقال عزِّ من قائل: (قَدْ أَفْلاَحَ مَن ْ زَكَّاهَا \* وَقَد ْ خَابَ مَن ْ دَسَّاهَا) (الشمس/ .(10-9

فالمستفاد من الآيتين الكريمتين، أنّ الإنسان يملك الاختيار في اتخاذ أي قرار شاء لنفسه، وأي طريق شاء، طريق السلامة، أو طريق العطب والفساد، فقد وكّل ا□ سبحانه إليه تزكية نفسه، وتقويمها، كما وكّل إليه إضلالها وتلويثها إن شاء.

عن ابن عباس (رض) "أفلح من زكَّى نفسه، أي طهرها، وأصلحها، بطاعة ا□، وصالح الأعمال، وخاب من دسَّاها: أي أخملها، وأخفى محلَّها، وأهلكها، وجعلها خسيسة قليلة".

وروي عن سعيد بن هلال، قال: كان رسول ا□ (ص)، إذا قرأ هذه الآية (قد أفلح من زكّاها) وقف ثمّّ قال: "اللّهمّ آت نفسي تقواها، أنت وليّها ومولاها، وزكّ ِها، وأنت خير من زكّاها".

وتوحي الآيات الكريمة، أيضاً ، أن " ا□ سبحانه، يؤيد بنصره من يحاول تزكية نفسه، فقوله تعالى: (قد أفلح من زكاها) لا تخلو من الإشارة إلى النجاح والفلاح، في عملية التطهير، والتعديل، والتوجّه إلى ال اللهاد، بل هي الجهاد الأكبر (و َالسَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَي اللهاد، ومحاولة للأكبر (و َالسَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَاللهَاد، ومحاولة للنفس من أكبر الجهاد، ومحاولة إصلاحها عمل إلهي، لا شك المحليذ ومكائدة، ولا يدع المجاهد يعاني من حبائل الشيطان ومكائده.

فالنفس التي — بطبيعتها — تأمر بالسوء بإلحاح ٍ، ويحول الشيطان بينها وبين تزكيتها وإصلاحها، قد يبدو تقويمها عسيرا ً، وثنيها عن السوء صعبا ً بعض الشيء.

(وَ مَا أُبْرَ ِّئُ نَفْسْرِي إِنَّ النَّغَسْ لأمَّارَةٌ برالسَّبُوء ِ إِلا مَا رَحَمَ رَبَّي) (يوسف/ 53).

قد يتراءى للإنسان في أو ّل وهلة، أن ّ صناعة نفس طاهرة ٍ، نقينّة ٍ، والقضاء على النفس السجينة الملو ّثة، تكلفه فوق طاقته، وتحم ّله فوق مقدوره، ولكن حين يأخذ بمجاهدتها، ويحاول إصلاحها ويمارس ذلك بالفعل، يتبينّن له، أن ّ ا□ سبحانه وتعالى، لا يدعه وحده، بل يمهد له السبيل، ويفتح له الطريق، للوصول إلى هدفه السامي المنشود.

إنّ مثل النفس، مثل الطينة الرطبة، يمكنك أن تشكّ ِلها كيف تشاء، ولكن لو اخترت َلها قُبح السريرة، وسوء الذات — والعياذ با — تتجمد على هذه الصورة، وتأخذ هذا الشكل القبيح.

هنا يرى (فرويد) أنّ النفس تتشكل في السنوات الخمس الأولى، من أيام الصبا، فإذا تجاوز الإنسان سنّ الطفولة، لا يمكنه — حينئذ ٍ — أن يغير في نفسه شيئا ً، ولكنّ الإسلام يرفض هذا الزعم، ويرى أنّ بإمكان الإنسان أن يجالد نفسه، أبدا ً دائما ً، وفي أي مرحلة كان من مراحل الحياة. فلو حاول تطهير نفسه، وتخليتها من الوسخ والكدر، والخطايا والذنوب، لوجد ا□ ناص ِر َه ُ، ومؤيدّه، ومعينه، فالتعرض لنفحات ا□، كافية للدخول في ظلّ رحمته تعالى.

قال (ص): "إنّ لربكم في أيام دهركم نفحات، ف َت َع َرّ َضوا لها...". فمن تعرّض لها، كان كمن أغلق الأبواب على شياطين النفس، وفتحها لفيوضات رحمة ا∐ عزّ وجلّ، واستعدّ لتلقي العلاج... كان كمن أزاح أعراض المرض، واستعد ّ لتلقّي العافية، وقبول الصحة والسلامة.

لابد ّ إذن، من إزاحة الأوساخ المتراكمة على النفس، المتمثلة بالمعاصي، والخلال السيئة حتى يتسنى التقرب إلى ا□ عز ّ وجل ّ، وورود مناهل المعرفة والفضيلة. فالأخلاق السيئة، بمثابة الغطاء للنفس، تحجب عنها الفضيلة، ولا تدع للتقوى مجالا ً، ليتسر ّب إلى النفس، م َثـَل ُ النفس معها، مثل الإناء المملوء ماء ً، فلا يمكن أن يدخله هواء.

فالنفوس المشغولة بغير ا□، لا تدخلها معرفة ا□، وحبٌّ ُه ُ وأنسُه ُ.

قال (ص): "لولا أنّ الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم، لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض".

فشيطان النفس، مانع وعائق في طريق العروج والر ُقِّي، إلى محل الت ُقى والإيمان والفضيلة.

يقول العلامة النراقي، في كتابه (جامع السعادات): "ثمّ ما لم تحصل التخلية، لم تحصل التحلية، أي ما لم تتم تصفية الخطايا والسيئات، لا يتم التحلي بالفضائل، كما أنّ المرآة، ما لم تذهب عنها الكدورات، لم تستعد لارتسام الصور فيها، والبَدَن، ما لم تَزُل عنه العَلَّة، لم تُتَصوّر له إفاضة الصحة... فالمواظبة على الطاعات الظاهرة، لا تنفع، ما لم تتطهّر النفس من الصفات المذمومة، كالكبر، والحسد، والرياء، وطلب الشهرة...".

(والرحمة الإلهية) بحكم العناية الأزلية، مبذولة ٌ على الكلّ، غير مضنون ٍ بها على أحد، لكن حصولها موقوف على تصقيل مرآة القلب، وتصفيتها عن الخبائث، ومع تراكم صدئها الحاصل منها، لا يمكن أن يتجلّى فيها شيء ٌ من الحقائق، فلا تـُحج َب ُ الأنوار عن قلب من القلوب، لبـُخل ٍ من جهة المنعم تعالى، بل الاحتجاب إنّما هو من جهة القلب لكدوره، وخبثه، واشغاله بما يضاد ّ ذلك.

## النفس اللوّامة:

ومن عجيب ما يحويه القرآن الكريم، من أمر النفس، هو اعتبارها (لوّامة) (.. وَلا أُوّسرِمُ بـِالنَّـَفْس ِ اللَّـوّ َامَة ِ) (القيامة/ 2)، تعتصر القلب — في بعض الأحيان — لكثرة لومها، على ما جنت يدا صاحبها من مآثم، واجترح من منكرات.

إنَّه تأنيب الضمير، كما يعبِّر عنه في الاصطلاح النفسي، وهو من عظيم الدلائل على وجود ا□ تعالى، فلو كانت المادَّة وحدها، أو الطبيعة وحدها، تتحكم في خلق الإنسان، فلا معنى — حينئذ ٍ — للنفس اللوَّامة،إنَّها قوة باطنة، يسيرها ا□ عزَّ وجلَّ، لتلجم الإنسان من التمادي في الظلم، والغي، والحرام.

ولا فرق في لوم النفس بين مسلم وكافر، ومؤمن وفاسق، فالجميع لابدٌّ أن يستشعر اللوم والندم، في لحظة من اللحظات، على ما بدر منه من خطايا وآثام، في هذه الحياة، وقبل يوم القيامة، ليكون و َخزُ الضمير رادعا ً عن التمادي في الزيغ.

فما من نفس برّة ً أو فاجرة، إِّلا وهي تلوم صاحبها، وتقوم: يا ليتني لم أفعل أما لـَوم النفس في الآخرة، وإن كانت وردت بذلك بعض الروايات، والأخبار، ولكن لا طائل من ورائه، إذ يكون دور العمل قد انتهى وولـّى، وبدأ دور المحاسبة، والثواب والعقاب، فما معنى أن تلوم َ الإنسان نفسه؟

واللوم يقع من النفس الفاجرة، كما يقع من النفس المؤمنة أيضا ً، فالنفس الكافرة الفاجرة، تلوم صاحبها، وتحاسبه في الدنيا، لما سلف منها من ذنوب، والنفس المؤمنة تلوم صاحبها على ما قصّرت في طاعة ا□، وتوانت في جنب ا□، أو ربما صدر منها بعض ما لا يرضي ا□ ولكن المتبادر إلى الذهن، من كلمة (النفس اللوامة) هو ما يعيشه أهل الظلم والفسوق والفجور، من تأنيب الضمير، لما ركبوا من أعمال منافية للدّ َين والأخلاق. ولوم النفس من السُنن الكونية التي أودعها ا□ تعالى في نفس الإنسان، ليكون قادرا ً على أن يمسك زمام نفسه، من اتباع الهوى والشيطان، فالنفس البشرية، تنزع تارة للخير، وتارة للشر، تميل للتقوى مرة ً، وللفجور أخرى، ولكنها حين تنزع للشر، وتعمل بالسوء، تتحرك النفس اللوامة، لتفعل فعلها، وتؤدي دورها، لردع الإنسان، ومنعه، ومعاتبته على السوء والفجور.

وربما تموت النفس اللوامة، في بعض الناس، أو تعمى، كما يعبِّر عن ذلك القرآن الكريم:

(فانسّها لا تَعْمَى الأبْصَارُ وَلَكَينْ تَعْمَى الْعُلُوبُ السَّتَيِي فَيِ الصّّدُورِ) (الحج/ 46)، فحينئذ لا تكون في الطريق إلى الصّلال، حواجز ذاتية وموانع ننفسّية، لكي تصدّ عن الأخطاء، والقبائح، والموبقات.

(خَتَمَ اللَّهَ عَلَى قُلُوبِهِم ْ وَعَلَى سَم ْعَهِم ْ وَعَلَى أَب ْصَارِهِم ْ غَشَاوَة ْ) (البقرة/ 7).

(فِي قُلُوبِهِم ْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهَ ُ مَرَضًا) (البقرة/ 10).

وعندها تتحكم فيه النفس الأمَّارة بالسوء، وتسوَّل له، لأنَّها الوحيدة على الساحة.

(وَكَنْلَكَ سَوَّلَت ْ لَي نَفْسِي) (طه/ 96).

وتهو ّن له ارتكاب الإثم، واجتراح السيئة، وتطو ّع له الحرام.

(فَطَوََّءَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتَاْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (المائدة/ 30).

وبما أنّ ا□ عزّ وجلّ، عالم بخبايا النفس، ومطلع على أسرارها ومكنوناتها، وما يخفي الإنسان فيها، فإنّه عزّ وجلّ، يعطي كلاً على ما تحويه نفسه، ويبادله بما هو أهل له.

(رَبِّكُمْ أَعَلْمَ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ) (الإسراء/ 25).

(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَننْتَ عَلامُ النُغُيهُوبِ) (المائدة/ 116).

إن ّا□ تعالى ينظر إلى القلوب، ويرى ما فيها بدق ّة، فإن كان المرء ذا قلب ذاك ٍ، ني ّر ٍ، ونفس قا بلة للهداية والإسلاح، تميل إلى التُقى والإيمان، زاده ا□ إيمانا ً وهداية، وأعانه على إصلاح نفسه، ووج ّه َه ُ إلى الخير والصلاح.

(و َم َن ْ ي ُؤ ْم ِن ْ ب ِ اللَّه َ ي ي َه ْد ِ ق َل ْب َه ُ و َ اللَّه ُ ب ِ كُ لُ ِ ّ ش َ ي ْء ٍ ع َل ِيم ٌ) (التغابن/ (11

(ه ُو َ السَّذِي أَ نَّزَلَ السَّكَيِينَةَ فَي قَلُمُوبِ الْمُؤُّمِينَ لِيَزَّدَ اد ُوا إِيمَانًا) (الفتح/ 4).

(وَ جَعَلَا ْنَا فَيِ قُلْلُوبِ السَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأَ ْفَةً وَرَحْمَةً) (الحديد/ 27).

(إِنْ يَعَاْلَمَ اللَّهَ ُ فِي قَلْلُوبِكُمْ خَيَرًّا يَّؤَتِكُمْ خَيَرًّا مِمَّاَ أَخُرِذَ مِنْكُمُ ْ) (الأنفال/ 70). وم َن كانت نفسه ملو ّثة بالآثام، وقلبه مريضا ً، بحيث صار ميؤوسا ً منه، لا ينفع معه صلاح وإصلاح، ولا يستحق أن تشمله هداية، فإن ّا□ ي َك ِلـُه ُ إلى نفسه، ويزيده مرضا ً إلى مرضه، وضلالاً إلى ضلاله.

(كَ ذَلَ ِكَ يَطَ ْبَعُ اللَّهَ عَلَى كُلْ ِ " قَلَا ْبِ مُتَكَبِرٍ جَبَّارٍ) (غافر/ 35).

(وَخَتَمَ عَلَى سَمْعيه ِ وَقَلَاْبِه ِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَر ِه ِ غَيْسَاوَةً) (الجاثية/ 23).

(كَنْلَلْكَ يَطْ ْبَعَ ُ اللَّهَ مُ عَلَيَ قُلُوبِ السَّنْ ِينَ لا يَعْ ْلَمُونَ) (الرَّوم/ 59).

وفي القرآن الكريم، تصريح، بأنّ الوقوف في وجه النفس، وصدّها عن هواها، ومشتهياتها، بعزم وصلابة، ومجالدة رغباتها، ومجاهدتها، دليل على قوة الشخصية، وعظمتها، وبذلك يستحق الإنسان، أن ينال الجنة ثمنا ً لهذا الموقف الإلهي الجليل.

فالإنسان، حين يصمد أمام هوى النفس، لأجل ا□، ويـُعرضُ عن المشتهيات الممنوعة، فإنّه بذلك يثبت ُ كونه عظيم النفس، قويّ الإرادة، فلا غَرو َ لو تكون الجنة مأواه، ومنتهاه.

(وَ أَ مَّ اَ مَن ْ خَافَ مَقَامَ رَبِيّه ِ وَنهَه َى النَّ فَسَ عَن ِ النَّهَوَى \* فَإِ ِنَّ الـ ْجَنَّةَ ه ِي َ الـْمَاٰ ْوَى) (النازعات/ 41-40).

يستشهد لنا القرآن الكريم، بموقف عظيم، من نبيّ كريم، هو يوسف الصدّ ِيق، على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، ويشيد به، وبإخلاصه □ تعالى، حين راودته امرأة العزيز (زليخا) عن نفسه، وأرادت منه الفحشاء، وهو الشاب الحسن الوجه، الذي لا يخلو من شهوات ونفس أمّارة بالسوء، ولكنه أبى، واستنكر بشدة، وغالب نفسه، وخالفها، ووقف موقفا ً عظيما ً، استحق به الخلود في الدنيا، والمقام الكريم في الآخرة.

(وَلَـهَدْ هِمَّتْ بِهِ وَهَمِّ بِهِا لَوْلا أَنْ رَأَى بِنُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلَلِكَ لَـنَصْرِفَ عَنَيْهُ السَّنُوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عَبِادِنَا الْمُخْلَصِينَ) (يوسف/ 24).

إنّ مثل هذه المواقف، ليس لها جزاء ٌ سوى الجنة التي أعدّها ا□ للمتقين، وما أكثرها في حياة المؤمنين، والأخيار من الناس.

المصدر: كتاب رحلة إلى أعماق النفس